# الماء في المخيال الشعبي الجزائري "دراسة رمزية في منطقة حمام النبائل بقالمة"

# Water in the Algerian popular imagination"A sympolic study in the Hammam N'bails/ Guelma "

**أ.رزايقية فاطمة، جامعة تلمسان- الجزائر**
**أ.بن معمر بوخضرة، جامعة تلمسان- الجزائر**

**ملخص:** يعد الماء المكون الأساسي في حياة الإنسان واستقراره؛ إذ أنه شرط من شروط الوجود الضرورية التي تقتضي العيش والنماء وسبب رئيسي في ديمومة الحياة واستمرارها .ولهذا السبب كان الماء عاملا مؤثرا في نشأة المجتمعات، وقيام الحضارات التي كانت تتخذ موقعها ومكانها قريباً من الأنهار الكبرى الدائمة الجريان وحول عيون الماء والينابيع ومساقط الأمطار الوفيرة وذلك لما تمنحه هذه الخصائص من عوامل بناء ورخاء، الأمر الذي يعني أن الماء يمثل رمزا من رموز المنَعةِ والقوة والثبوت والخصوبة فكلما توافرت الشعوب على مصادر ماء غنية كانت حظوظها في الاستقرار والصمود وإنتاج القيم الحضارية أكثر"، فالماء هو الأساس الأول للحياة ولهذا يحضر بقوة في الثقافة الإنسانية منذ القديم، ومن خلال هذا المقال العلمي نود تسليط الضوء على عنصر الماء بالدراسة والتحليل في المخيال الشعبي بمنطقة حمام النبائل بقالمة كنموذج.

**الكلمات المفتاحية:** الماء، المخيال، الرمز، الطقوس، المعتقدات

**Abstract:**Water is the essential component of human life and stability, As it is one of the essential conditions of existence that require living and development and a major reason for the permanence and continuing life. For this reason, water has been an influential factor in the emergence of societies, and the establishment of civilizations that were taking place and location near the great rivers running constant and about the source of water and springs and abundant rainfall because of these characteristics of building factors and prosperity, which means that water is a symbol of the momentum and strength and steadfastness and fertility, whenever people have access to rich water sources the greater their chances of stability and steadfastness and the production of more civilized values, water is the first foundation of life that is why he has been very strong in human culture since ancient times, through this scientific article we would like to highlight the water component of the study and analysis in popular imagination in the area of Hammam N'bails in Guelma as a model.

**Keywords:** water, imagination, symbol, rituals, beliefs.

**مقدمة وإشكالية الدراسة:**

الماء جوهر الحياة والعنصر الرئيسي لها و يعد المكون الأساسي في حياة الإنسان واستقراره، إذ أنه شرط من شروط الوجود الضرورية التي تقتضي العيش والنماء وسبب رئيسي في ديمومة الحياة واستمرارها .ولهذا كان عاملا مؤثرا في نشأة المجتمعات، وقيام الحضارات التي كانت تتخذ موقعها ومكانها قريباً من الأنهار الكبرى الدائمة الجريان وحول عيون الماء، والينابيع و مساقط الأمطار الوفيرة ، وارتبط الماء بحياة البشر ارتباطا وثيقا سواء أكانوا أفرادا، قبائل أو حتى شعوبا وأمم، وهذا يبين ما للماء من أهمية كونية، وما تمنحه خصائصه من عوامل بناء ورخاء ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على: "أن الماء يمثل رمًزا من رموز المنَفعةِ والقوة والثبوت والخصوبة، فكلما توافرت الشعوب على مصادر ماء غنية كانت حظوظها في الاستقرار والصمود وإنتاج القيم الحضارية أكثر"( هيثم سرحان، 2008، ص106) ، فالماء هو الأساس الأول للحياة لقوله تعالى ﴿وَجَعْلناَ مِن الَماء كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ أَفلا يَؤْمنوُن ﴾(سورة الأنبياء، الآية30) ولهذا يحضر الماء وبقوة في الثقافة الإنسانية منذ القديم، وبما أن الماء مادة الحياة، ومورد الخصوبة، وأصل الكون، فقد اعتبر من بين الرموز الثقافية التي يستعملها الإنسان في التواصل مع أفراد الجماعة، ومع العالم غير المنظور.

حيث ترجع أغلب أساطير المجتمعات البشرية أصل الكون وجميع المخلوقات إلى الماء، إذ تعبر عنها داخل قوالب وأشكال طقوسية منذ القدم، وأصبحت من المعتقدات والموروثات الشعبية المتصلة بالماء، تحضر بحلول الجفاف وندرة الأمطار، وهي وإن اختلفت طرق أدائها وكيفية ممارستها فإن الغاية من ورائها واحدة، حيث تترجم كمضامين دالة على الخصوبة والحياة، إذ عبر المخيال الشعبي عن هذا بجملة من الرموز المشكلة لطقوس الاستمطار الدالة على معاني الخصوبة والحياة والإنتاج.

فالماء يتعدى ماديته الفيزيائية والكيميائية بكثير، فيحاط بجملة من الاعتقادات والممارسات تصل إلى درجة تقديسه، حيث أنها ليست ممارسات واعتقادات تكرارية واعتيادية، بل يتفق عليها أفراد المجتمع، ويحددون لها طرائق وغايات، ويبررون لها الدوافع والمألات.

كما نجد الماء يحضر في الكثير من ألوان الأدب الشعبي، كالألغاز، والقصص والحكايات، وكان له نصيبا وافرا في الأمثال الشعبية، فهناك الكثير من الأمثال حول الماء تحمل ضمنها رسائل مختلفة للحفاظ على الماء أو على أهميته وقيمته.

ولما تعدى الماء خاصيته الطبيعية، وأحيط بجملة من الرمزيات والتمثلات تشكلت في العديد من مظاهر المخيال الشعبي، أردنا الكشف عن دلالاتها ومعانيها، وذلك من خلال رصدها في أكثر مظاهر المخيال الشعبي تناولا لعنصر الماء، كطقوس الاستمطار والمعتقدات والأمثال الشعبية.

وقد كانت دراستنا لهذا الموضوع في منطقة "حمام النبائل بقالمة" الواقعة بالشرق الجزائري، و الذي نحسبه مجتمع متأصل في ثقافة جزائرية عامة له خصوصياته المحلية التي تطبعه وتميزه خصوصا حول بعض القضايا والمسائل من قبيل موضوعنا-الماء في المخيال الشعبي-التي نسجت حولها اعتقادات وتصورات حصيلة تراكمات وموروثات تركها الماضي في ذهنية أفراد

المجتمع والتي تضرب بجذورها في أعماق أبنية أسطورية، دينية وشعبية، انتقلت بالتوارث من جيل إلى جيل، لتعيش معنا وتتوالد تحت تأثير مخيال شعبي يمتزج بألوان الثقافة الشعبية للمنطقة والتي تترجمها جملة من أشكال التعبير الشعبي والطقوس والمعتقدات الشعبية.

وعلى ضوء ما تقدم، يتبين أن الماء عنصر طبيعي، يحظى بوضع رمزي وحيوي جعله في أصل الطبيعة والرمزية؛ وتبعا لذلك، يمكن أن نطرح الإشكال التالي:

-ما أهم التمثلات الرمزية للماء في المخيال الشعبي في منطقة حمام النبائل؟ ما السبيل لفهم البنية الرمزية التي أنتجها المخيال الشعبي حول الماء من خلال طقوس الاستمطار، المعتقدات، والأمثال الشعبية؟

وللإجابة على هذا الإشكال اعتمدنا المنهج الاثنوغرافي وكذا التاريخي، لجمع ووصف المعطيات الخاصة بموضوعنا، ومحاولة معالجتها وتحليلها، واعتمدنا على الملاحظة بالمشاركة كتقنية لاستنطاق المعطيات الميدانية.

لكن وقبل الخوض في تفاصيل هذا الموضوع، لا بأس أن نضيء جوانبه بفرش تاريخي، انطلاقا من فكرة فحواها " أن أي دراسة تروم استقصاء خبايا ثقافة معينة، ينبغي لها أن تطرق باب ثقافات وحضارات أخرى، حتى يكون مستوى رؤيتها أرحب وأفسح" (بوجمعة كثيري، http://ww.oudnad.net27/06/2018 17:08).

بيد أن اهتمامنا الآن، ليس البحث عن الجذور التاريخية للماء، أو كيفية بدايته بقدر ما يهمنا طريقة تعبيره عن تعدد الروافد الثقافية والحضارية.

**أولاً. تقديس الماء عند الشعوب والأمم:**

منذ القديم، والإنسان يرى أنه محاط بعناصر الطبيعة، وظواهرها المختلفة، فكان يقف أمامها حائراً، ساهما واجما، لا يدرك كنهها، ولا حقيقة العلاقة التي بينه وبينها، فاشتط به الخيال، وتصور أن فيها، أو وراءها قوى حية، يمكن أن تصيبه بشر مستطير، أو خير نافع، ثم راح يغلو به الخيال، حتى جعل لكل مظهر من مظاهرها، إلها، في زعمهم في الغالب، ونتيجة لهذا صار يعبدها، ويتقرب إليها طمعاً في خيرها ودفعها لشرها.

**1.الماء عند القدماء:**

اعتبر الماء خلال عصور طويلة وإلى اليوم ينبوع الحياة، وسر الوجود، ومعجزة الطبيعة، كما ارتبط منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الآن بالشعائر الدينية، وأساطير الآلهة والأبطال، وتلفّت الفلاسفة حواليهم، على الطبيعة تنضح بأسرارها، وتفصح عن مخبآتها ومكنوناتها، لتعلن عن أصل المادة، وتفسر ظواهرها وردها إلى جذورها وأصولها.

واهتم الفكر الإنساني منذ أكثر من ألفي عام بالبحث عن المكونات الأساسية للكائنات، فظهرت نظريات ومفاهيم كثيرة في حضارات متعددة، استقرت في النهاية إلى نظريات العناصر أو الأركان أو الجذور الأربعة، وهي: الماء، التراب، النار، الهواء. كما ذهب بعض حكماء الشرق إلى أن الكائنات ترجع إلى عنصر واحد، إما الماء، أو الأرض، أو الهواء، أو النار، كما نحا البعض الآخر إلى تكونها من عنصرين، أو من أربعة عناصر، أو من عدد غير محدود من العناصر، وكان مردُّ هذا كله إلى المشاهدة والنظر إلى العالم المحيط بنا.

فطاليس (Thalés) الفيلسوف اليوناني الحكيم وعالم الرياضيات(624 – 547 ق.م) عاش في آخر القرن السابع ق.م، والذي يعتبر أحد الحكماء السبعة لليونان، يرى في الماء العنصر الأول في هذا الكون ونظر إليه على أساس أنه أهم مولد للكون حيث إن له نظرية تتلخص في الأسس الآتية:

-الأرض محمولة بالكلية على الماء.

-الماء هو العنصر الأساسي لكل الكائنات، أي أن الماء هو السبب الأول للكون.

-يحوي الماء قوة غريزية، وروحاً حية، كذلك المتواجدة في حجر المغناطيس بدليل أنه يجذب الحديد. كذا الكهرمان وجذبه
للقش.

-كل الكائنات تكمن فيها الآلهة حسب زعمه.

-المادة متصلة لا فراغ فيها، وهي قابلة للقسمة دون حد.

-الحرارة منشؤها الرطوبة، والموت سببه الجفاف. ( محمد بن عبد العزيز بنعبد الله، 1996، ص292).

أما أرسطو، فقد كان يرى فيه هو والهواء، والتراب والنار العناصر الأساسية في تكوين هذا العالم المادي، وقد سادت هذه النظرية لمدة عشرين قرناً.

ولقد كانت المكونات الأساسية فب فكر الحضارة الصينية القديمة، ولا سيما ما وجد في كتاب(شوشينج)، أن كل كائن لا بد وأن يكون مركباً من: الماء، الأرض، المعدن، الخشب.

كما تعتمد العناصر في الحضارة الهندية ما أخذت به الحضارة الصينية القديمة، وقد أشار(ج. هولميارد) في كتابه:(مؤسس علم الكيمياء)، إلى فكرة أصل المادة، وتفسير ظواهرها تعود إلى العالم الهندي الكبير(كانادا) الذي قال بأن أصل الكون يمكن رده إلى عناصر أربعة: الماء، الهواء، النور، التراب.

ويذكر أبو الريحان البيروني، في كتابه(في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة، في العقل أو مرذولة). "ومن البيّن أن كل مركب، فله بسائط منها يبدو التركيب، وإليها يعود التحليل". والموجودات الكلية في العالم هي العناصر الخمسة، وهي على رأيهم: السماء، والريح، والنار، والماء، والأرض. وتسمى(مهابوت)، أي كبار الطبائع.

ولا يذهبون في النار إلى ما يُذهب إليه من الجسم الحار اليابس عند تقعير الأثير، وإنما يعنون بها هذه الموجودة على وجه الأرض من اضطرام الدخان.

وفي (باج سبران) أن في القديم، كان الأرض والماء، والريح والسماء، وأن(براهم) رأي شرارة تحت الأرض، فأخرجها وجعلها أثلاثاً.

ويشير أبو الريحان البيروني في كتابه إلى بعض أقوال حكماء الهند في قضية العناصر فيقول: وقال(بلسن) في (سد هنادة): "إن كلية العالم هي جملة الأرض والماء والنار، والريح، والسماء، خلقت فيما وراء الظلمة"( محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، 1996، ص293)، وفي هذا المقام يؤكد البيروني على أهمية عنصر الماء فهو من عناصر الكون والخلق.

**2.التصور الميثولوجي للماء عند العرب:**

كان عرب الجاهلية يقدسون مواطن المياه ويتصورون أن فيها سراً غامضاً، فكأنها كانت في تصورهم مواطن الآلهة أو الأرواح، وكانوا إذا غم عليهم أمر الغائب جاؤوا إلى بئر قديمة ونادوا ثلاثاً: يا فلان، فإذا كان ميتاً لم يسمعوا في اعتقادهم صوتاً، ويقول الشاعر معبراً عن هذا:

دعوة أبا المغوار في الحفر دعوة فما آضَ صوتي بالذي كنت داعيا

أظن أيا المغوار في قعر مظلم تجر عليه الذاريات السوافيـــــــا

فكان العرب في فجر تاريخهم ينظرون إلى المياه نظرة تقديس، لأنها مورد الخصب والنماء، وواهبة للبركة والخير، فكانوا ينشدون الأراجيز أثناء حفر الآبار، فنظم كل فريق منهم الأراجيز التي تثني على بئره، وتمدح وتقدس ماءه، وقد تعيب ماء غيره من الآبار، حيث يعبر الشاعر عن هذا في قوله:

نحن حفرنا بئرنا الحفيرا بحراً يجيش ماؤه غزيرا

ولعل الحرمان وندرة المياه، وجدب الأرض، هو الذي جعلهم يبالغون في تقديس الماء، وتقدير الخصب، ويرون له رونقاً خاصاً في هذه البيئة الجرداء، ومن هنا وجدنا القصص الطويلة التي دارت حول الآبار والمياه، وما ورد حول حفرها من روايات دليل على هذه القدسية.

كما قدسوا مواطن الماء القديمة، واعتقدوا فيها أسراراً غامضة، وأضفوا عليها من القوى الخفية ما لم يضفوه على غيرها من الأماكن(محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، 1996، ص212).

فالسبب الرئيسي والأساسي في تقديس الماء عند جميع الشعوب هو أهميته في الحياة والإنتاج، فندرة الماء و جذب الأرض هي من زادت وعيهم بأهميته ومن ثم تقديسه.

**3.ندرة الماء وخلق الخرافات والأساطير:**

ندرة الماء كانت من أهم الأسباب في خلق الخرافات والأساطير وكثرتها، ولهذا وجدنا حكاية التضرع والدعاء للمطر، والروايات والأخبار التي تتحدث عن سنوات الجدب التي حلت بأرض الحجاز، وكذلك حكاية نار الاستمطار، وهي النار التي كانوا يستمطرون بها في الجاهلية وما حكي حولها من أساطير، فقد كان العرب يزعمون أنه إذا أمسكت السماء مطرها ومنعت درها، وتتابعت عليهم الأزمات، وركد عليهم البلاء واشتد الجدب، واحتاجوا إلى الاستمطار، اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر، ثم عقدوا في أذنابها السلع والعشر، ثم صعدوا بها في جبل، وأشعلوا فيها النيران، وضجوا بالدعاء والتضرع، فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السقيا.

الواقع أن الإنسان لم يتفطن طوال حياته إلى أهمية المياه الكبرى، فقد كان يعتبره هبة من الهبات الطبيعية التي لا تنضب ولا تغور أبداً، وأخيراً بدء يعي أهمية هذا المصدر الحيوي الخطير، فاعتبره أحد العناصر الأربعة وواحداً من عناصر الحياة المهمة، كما كانوا يؤلهون الماء ويعبدونه، ومن بين الطوائف التي تعبد الماء طائفة تسمى (الحلبانية) تزعم أن الماء لما كان أصل كل شيء، وبه ولادة كل شيء ونموه ونشوئه، وما من عمل في الدنيا إلا يحتاج إلى الماء، ومن شريعتهم في عبادته، أن الرجل إذا أراد عبادته، دخل فيه حتى يصير إلى وسطه، فيقيم هناك ساعتين أو أكثر، ويكون معهما ما يمكنه أخذه من الرياحين، فيقطعها صغاراً فيلقيها فيه شيئاً

فشيئاً، وهو يسبحه ويمجده، وإذا أراد الانصراف، حرك الماء بيده ثم أخذ منه ليضعه على رأسه وجسده، ثم يسجد وينصرف.

أما في الشعوب السامية القديمة كان للأرباب بيوت تستقر فيها، هي الواحات، ومواضع المياه في الغالب.

وقد اعتقد اليونانيون أن (زيوس)، كبير آلهتهم وهو إله الرعد والبرق، وأخاه (يوزيدون) إله العواصف والبحار، أما الرياح الغربية فكانت إلهها (زافيروس)، فأتباع (إيزيس)، و(متراس)، كانوا يبدؤون الانضمام إلى عقيدتهم بالتعميد من ينبوع، وأن الناس في عبادات (آبولو) كانوا يعمدون، وهم يفكرون في الخلاص والتحرر من الأوزار، فكان أي شخص يلطخ يديه بالقتل يذهب للبحث عن الماء الذي يمكن أن يطهره من ذنبه، وبلغ من تمسك اليونانيين بتلك المعتقدات، وتصديقهم إياها، أنهم كثيراً ما أمضوا الساعات الطويلة وهم يصلون لتلك الآلهة لعلها تغرق أعدائهم بمياه الأمطار، أو تفزعهم وتفرق شملهم بالبرق والرعد(محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، 1996، ص313-314).

نجد أن صفة القداسة كانت لصيقة بالماء عند جميع الشعوب وفي أغلب الحضارات، حيث ألهو كل ما له علاقة بالماء، فجعلوا اله البحر، واله الأنهار، واله الأمطار، وأصحبوا يعبدونها تعبيرا منهم على قداسة الماء.

**ثانياً. الماء في المخيال الشعبي في منطقة حمام النبائل:**

**1.طقوس الاستسقاء:**

**أ.طقس القايمة:**

القايمة طقس أنثروبولوجي بامتياز مليء بالدلالات والرموز، وهو من الطقوس المتوارثة لدى سكان منطقة الدراسة، فعندما يدوم الجفاف إلى الحد الذي يبدأ بتهديد المزروعات، ويجعلها في خطر، تجتمع النسوة في بيت العجوز الأكبر سنا في المنطقة، فالمرأة المسنة في المخيال الشعبي تجسد البركة والطهارة لخلوها من دم الحيض والشهوات الجنسية ، فالمبادرة الفعلية في التحضير لهذا الطقس متعلق بالمرأة أساسا، فيبدأ هذا الطقس بعقد النية حيث تنوي كل الحاضرات في سرهن أداء طقس عروس المطر "القايمة" كما يطلق عليها مجتمع الدراسة، أو " بوغنجة" و " تلا غنجة" تسمى في مناطق أخرى، و يشترط حضور الأطفال في هذا الطقس فهم يحملون دلالة النية الصافية ، فتنزع العجوز أغطية رأسها الزاهية الألوان، وتقوم بربطها بملعقة كبيرة أو كما تسمى محليا "مغرف الزقو"، حيث ترمز أغطية رأس العجوز" المحارم محليا" إلى اكتساء الأرض بمختلف الأعشاب والزهور،تخبرنا بهذه الدلالات الرمزية "المخبرة رقم1"( سيدة تبلغ من العمر 84 سنة تقطن بمنطقة الدراسة، ربة بيت) بقولها: "نحنا نربطو مغرف الزقو بالمحارم حابين لرض تولي زاهية بللوان كيما المحرمة "أما "مغرف الزقو"، فهي ترمز إلى جوع سكان المنطقة كما تحمل دلالة المياه الغزيرة لأنها مخصصة لحمل كمية كبيرة من المرق، ومنهم من يفسرها على أن شكل مقدمة الملعقة يشبه اليد المفتوحة في تضرعها ودعائها للمولى عز وجل، ويعبر عن هذا الاثنولوجي" " ايميل لاووست" من خلال تعرضه للإسقاطات الدلالية والحمولة الرمزية التي تربط بين، المغرفة وعروس المطر، التي يطوفون بها لنزول المطر من طرف اله

الخصب والمطر، وهذا حسب الأسطورة المشكلة لهذا الطقس الاستمطاري، يؤكد بذلك استباق العنصر الثقافي عن العنصر الديني "(حنان حمودة، 2016، ص143).

وعند الانتهاء من صنع عروس المطر، ترفعها صبية عذراء، بيدها اليمنى تلوح بها إلى السماء، يتبعها صبية صغار ويسير الجميع في موكب بهيج مرددين بعض الأهازيج المتناغمة والموزونة في شكل أسلوب تضرعي، حيث يقول "محمد الجويلي":" بأن أناشيد الاستمطار تحمل معاني الحياة والتغيير"( محمد الجويلي، 2016، ص12)، فهي مشحونة بالكثير من الدلالات الأنثروبولوجية، إذ يردد الصبية:

القايمة القايمة ...القايمة لبست لخضر واللون الزاهي
القايمة القايمة ... جات تتبختر ولحين حن علينا
القايمة القايمة ...القايمة لبست جلالة والعام كاد الرجالة
مطارة قطارة تملي عروق العرعارة
النو صبي صبي بنت النبي طلبت ربي

إذ أن الصبية في هذه الأقوال يتغنون بعروس المطر(القايمة) حيث أنهم البسوها لباسا أخضر اللون وفي الخضرة دلالة على المحصول الوفير، والألوان المختلفة البهية، و في قولهم (جات تتبختر)، أي أنها تمشي بتفاخر، طمعا في أن ينعم الله علينا بالمطر، القايمة لبست جلالة والعام كاد الرجالة، أي أنها ارتدت وتزينت بغطاء، فكان الخير الوفير والمحصول كثير حتى إن الرجال أنهكهم تعب جنيه، وفي قولهم (مطارة قطارة تملي عروق العرعارة) أي أن هنا رجاء وتمني بأن تمطر السماء إلى أن ترتوي عروق شجرة العرعار، (النو صبي صبي بنت النبي طلبت ربي)، وفي هذا دعوة الله سبحانه في أن تنزل المطر، مع ذكر بنت النبي لعل الدعوة تستجاب لهم، لما لبنت النبي صلى الله عليه وسلم من مكانة.

وفي جهة أخرى من منطقة الدراسة يردد الأطفال:" بوغنجة حرك راسك يا ربي اروي ناسك ، بوغنجة يلعب يا رب صب علينا الماء، بوغنجا يلعب يا رب نشبع ماء"

وعند وصول الأطفال إلى كل بيت ، على أهله أن يقوموا برشهم بالماء ،يتم ذلك في جو من الفرح الممزوج بضحك الأطفال يمنحهم أهل البيت الخضر والدقيق فيجمعونها في قفة، تقول إحدى المخبرات(المخبرة رقم2): " كي يكملو الصغراوات أي الأطفال الصغار،من البيت اللخر فالدوار تبدأ النو تصب"، أي أنه بمجرد الانتهاء من أخر بيت يبدأ المطر بالهطول، ليعودوا بها إلى البيت الذي انطلقوا منه فتقوم النسوة هناك بتحضير الطعام المتمثل في طبق الكسكس، مما جمعه الأطفال ويتم تحريكه في القدر بواسطة "مغرف الزقو" التي استعملت في الطقس، يجتمع الأطفال حوله سعداء يأكلون من الطبق كما يأكلون منه اليتامى والمارة.

فكما حدثتنا المخبرة السابقة، أنه بعد الانتهاء من حيثيات الطقس المذكورة سالفا يبدأ المطر بالهطول بغزارة شديدة، تكمل في اخبارنا قائلة:" ...تبدأ النو تصب قاوية، خطرات يصب الحجر والبحرورش(البرد)، تبدا نسا بتزغريت، ويلموا الصغراوات البحرورش لي يصب وتبدأ وحدة منا تهرسو في مهراس باش تحبس النو وما تفسدش الغلة"، أي أنه إذا تهاطل المطر كثيرا وتبعه

البرد، يقام في هته الأثناء طقس عكسي، حيث تقم النسوة بالزغاريد وطحن كمية من البرد في المهراس، طلبا واستنجادا بالمولى لتجفيف الأرض و توقف المطر، عندما يتجاوز حد المنفعة.

إلى جانب هذا الطقس توجد هناك طقوس أخرى غايتها طلب الغيث توارثتها أجيال منطقة الدراسة وتداولنها من خلال إحيائها كلما حل الجفاف، تعرضنا لها من خلال عملنا الميداني، وهي لا تقل أهمية عن سابقتها، إذ أنها لا تستغرق وقتا ولا تتميز بمراحل تحضيرية كثيرة كطقس "القايمة" نذكر منها:

**ب.طقس الزردة وزيارة الأولياء الصالحين:**

تعد الزردة من أهم الظواهر الاجتماعية والاعتيادية التي لها انتشار واسع في المنطقة، فهي "ظاهرة اجتماعية وسياسية ، تتم في مكان محدد يلتقي الناس فيه، وهم عادة من نفس العرش ينتمون على ولي صالح يتبركون به، أو يحيون سنة الجد الأكبر تكرمًا له"(سنوسي صليحة، 2002-2003، ص15).

حيث تقام الزردة أو الوعدة عند مزارات من يعتقد بصلاحهم كالأولياء والمرابطين، ونجدها تقام في وقتان يحدثنا (المخبر رقم 3، يقطن بمنطقة الدراسة يبلغ من العمر 80 سنة،عاطل عن العمل) حيث يقول" زردة عين الشقة عندها زوز وقات فالعام، عندنا فالخريف وقت الحرث باش تصب النو، وعندنا تاع الربيع باش تصلح الغلة"، نجد أن الزردة عادة ما ينسب اسمها الى ولي صالح، أو المكان المدفون فيه ذلك الولي، مثال ذلك: زردة عين الشقة، زردة عين الكبيرة، زردة مرابط سعد، زردة مرابط سعيد... "وينسب بعض هذه الأضرحة على الأولياء الذين صورهم المعتقد الشعبي على أنهم الواسطة بين الإنسان وخالقه، ومن هذا فإنهم يعترفون له بسلطان فعلي خارق لا يدانيه سلطان ولا تغرب عن قدرته معضلة(أحمد رشيدي صالح، 2002، ص148). ويتداول أصحاب مجتمع الدراسة الكثير من الحكايات والروايات عن كرامات هؤلاء الأولياء وقدراتهم الخارقة حيث تصل درجة الاعتقاد بهم عند أفراد مجتمع الدراسة إلى درجة الحلف والتبرك بهم، فروح الولي تظل تنتقل بكل حرية في كل مكان، ولقضاء حاجة فعلى الطالب أن يستنجد باسمه، ليتم له ما أراد حسب المعتقد السائد.

ففي يوم معلوم يتم الاتفاق عليه من طرف أهل القرية وكبار عرشها عن اليوم الذي ستقام فيه الزردة، للتبرع لها والتحضير لمستلزماتها، وتتم الزردة بالقرب من قبر الولي الصالح تيمنا لنزول الغيث في موسم الحرث، حيث يحضر الأهالي ما طاب ولذ من الأطعمة كالكسكس باللحم، التمر، الكسرة، الحليب، اللبن.... الخ، ويأكل الحضور، وكذلك المارة والأطفال الصغار...حيثما ظهر أحد أو جماعة تمر بالقرب من مكان الزردة، يقوم أحد الفاعلين فيها بمناداتها بصوت عالي بقوله" أي اربحو يا رابحين اربحو اربحو، الخير ياسر وربي الرازق" أي تعالوا فان الأكل كثير والله هو الرزاق. يتم كل هذا في جو من الدعاء بنزول الغيث النافع في هذا الموسم، إضافة إلى هذا تكون فرقة "الرحابة" حاضرة ، وتكون هذه الفرقة مكونة من ستة أو ثمانية أشخاص يكونوا متقابلين بالتساوي، ثلاثة مقابل ثلاثة وتارة يقتربون وتارة يبتعدون متشابكين بأذرعهم ويضربون أرجلهم على الأرض مرددين بعض الأغاني ومدائح الرسول صلى الله عليه وسلم، بلباس تقليدي متمثل في "الرزة" أو "الشاش"، وهي قطعة من القماش توضع وتُلف على الرأس، وكذلك

القندورة وفوقها البرنوس، "الرحابة هي سنفونية جميلة تجمع بين الغناء وحركات الأرجل في انسجام وتناغم رائعين(فرقة الرحابة في منطقة حمام النبائل مكونة من ستة أفراد؛ مكلفة من طرف مديرية الثقافة، للولاية). وفي هذا كله رمزيات دلالية في المخيال الشعبي للمنطقة بأنه من خلال هته الممارسات ينزل الغيث وينسبونه إلى قدرة الولي التي أقيمت عنده الزردة، في وساطته بينهم وبين الله. وأضحت هذه العادات راسخة في نفوس الأجيال وشكلت تراثا شعبيا، يشترك فيه عامة الناس، يطبع سلوكهم وأفعالهم وحياتهم اليومية.

**2.الماء والمعتقدات الشعبية:**

من خلال تتبعنا لموضوع الماء والتركيز عليه بالملاحظة والدراسة وجدناه يتعدى ماديته الفيزيائية والكيميائية بكثير، وخير دليل على هذا جملة الطقوس والممارسات والاعتقادات حوله، وهي ليست ممارسات وطقوس اعتيادية وتكرارية بل يتفق عليها أفراد المجتمع، يحددون لها طرائق وغايات ويبررون لها الدوافع والمألات، وفي هذا الصدد يقول "راد كليف براون": " بأن الطقوس تمثل تمثيلاً رمزياً جميع الأشياء التي تستند على تأثير السلوك الرمزي بأنواعه المتعددة، فالقاعدة الأساسية للطقوس هي تطبيق القيم الطقوسية على الأشياء والحوادث والمناسبات التي يمكن اعتبارها بمثابة الأهداف ذات المصالح المشتركة التي تربط أعضاء المجتمع الواحد"(عبد الرحيم العطري، 2014، ص82).

نجد أن الطقوس المحيطة بالماء في مجتمع الدراسة تتراوح بين، ممارسات استشفائية علاجية، سحرية، وطقوس اعتقاديه، من بينها:

**أ.الحمامات الشعبية طقوس ومعتقدات:**

تتمتع منطقة الدراسة بالحمامات المعدنية، كون مدينة قالمة معروفة بأنها منطقة حموية، ويوجد بالمنطقة حمام معدني يسمى ب" حمام الطاهر المعدني"، كان بدون غطاء إلى غاية 1994م، استثمرت فيه شركة ذات مسؤولية محدودة، وعدّل في أحسن صوره، أمّا عن خصوصية مياه هذا الحمام فهو يحتوي على خصائص علاجية فهي مياه سطحية ذات حرارة معتدلة، معدنية وذات أصول قاعدية غنية بالكلور و الصوديك، فهي مياه ثابتة الحرارة والتدفق شتاءً وصيفًا، يساعد في علاج أمراض المفاصل، الروماتيزم، آلام العمود الفقري، هشاشة العظام، الحساسية الجلدية(حصة ربيع قالمة، حمام النبائل، الإذاعة الجهوية لولاية قالمة، 2015/4/17. 15.00). تأتيه الناس من كل الولايات، وخاصة القريبة من المنطقة، حيث يلجئون أحيانا للعلاج و والاستشفاء لخصوصية مياهه المعدنية.

ويرتبط الحمام بدرجة أولى بمفهوم الطهارة، لما لها من مكانة أساسية في العبادات الإسلامية، فقد اهتم الدين الإسلامي بنظافة الجسد، وورد في القران الكريم في سورة البقرة، قوله تعالى:(إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾(سورة البقرة الآية122)، وقوله أيضا: ﴿وينُزِّلُ عَليكُم مِّن السَّمَاء ماءً ليطُهَّرُكم بهِ.﴾ (سورة الأنفال، الآية11) فالماء عدَّ دوًما الوسيلة الأولى للتطهير الطقوسي الذي يسبق الشعائر التي يؤديها الفرد المسلم، كما نجد ذلك في مصر القديمة فكان الكهنة يغتسلون في بحيرة مقدسة قبل الفجر، مطهرين أجسادهم، وكانت أبواب المعبد تفتح في اللحظة التي تشرق فيها الشمس وكان تمثال الإله يجرد من ثيابه عندئذ ويغسل، فالماء عندهم ليس

لتطهير البشر فقط بل حتى الآلهة أيضا فقد عرفت الحمامات المقدسة، في عبادة الألوهات النباتية الفينيقية، والكريتية، وحتى الربات الإغريقية :حمام أفرْوِديتْ في باخوس المشار إليه في الأوديسا، حمام أثينا الذي تغنى به كليماك هذه الطقوس طبقت مع أمل الحصول على المطر والخصوبة" وحتى وقت قريب كان لحمَّام العروس في مجتمع الدراسة طقوسه ومعتقداته التي تؤكد هذا الأمر، كما يحضر الماء في بعض طقوس الزواج الأخرى.( فيليب سيرينج، 1992، ص353-354)

حيث تعتبر الطهارة ممارسة دينية طقوسية بامتياز، يلتزم بها المسلم ليتقرب إلى الله، وهي مختلفة عن النظافة، "فالطهارة الظاهرة وسيلة الى حصول الطهارة الباطنة، وما لم تحصل الأولى لم تحصل الثانية"( صوفية السحيري بن حتيرة، 2008، ص181).

وزيادة على هذا فأن للحمام أدوار أخرى فضلا عن وظيفة الطهارة، فهو أصبح من العادات الثقافية المتوارثة في منطقة الدراسة، وفي سياق المقابلات مع بعض النساء المرتادات للحمام أنه متنفس لهن، لأنهن يقضين ما يزيد عن الأسبوع بين جدران المنزل وهي فرصتهن يوم الذهاب إلى الحمام، للترويح عن أنفسهن، وفي هذا تقول إحدى السيدات:" راجلي واعر، وما يخليني نروح حتى لبلاصة بخلاف الحمام...نجي نتحمم ونتلاقا لحباب، نحي على بالي...نروح مرتاحة، تقول ولدت من جديد"، ففضلا عن أن الحمام له دور في النظافة فله أيضا وظيفة اجتماعية ونفسية لا تقل أهمية من وظيفة الطهارة خاصة عند فئة النساء، "فالاستسلام لطقوس الحمام هو الاستسلام لفسحة خارج الزمن، تتصالح فيه المرأة مع نفسها وهويتها، وتتفاعل بشكل ايجابي مع هذه الفسحة، فهو بمثابة زعزعة للبنيوي اليومي"(خولة الفرشيشي، 2017، ص89)

وهناك من يزور الحمام اعتقادا في أن لمياهه قوى خارقة في صنع المعجزات، فنسجت حول مياهه النابعة من صخرة كبيرة متواجدة في الحمام العديد من الاعتقادات تجاوزت ميزته الاستشفائية، و التطهيرية، وكذا الاجتماعية والنفسية.

وتمثلت في أنها مياه مباركة، يتبركون بها ويجعلون منها رمزا للعديد من سلوكياتهم، في اعتقادهم أن هناك أولياء صالحين يحمون تلك المياه ويزيدون في بركتها، فيتبرك الزوار بمائه طلبا في الشفاء من الأمراض الخطيرة، والزواج، والولادة، وعل زوار الحمام أن يتقيدوا بالسلوكيات الحسنة والتلفظ بما طاب من الكلام، وممارسة ما يرضي أولياء الله حماة الحمام في اعتقادهم، ومخالفة ذلك قد يؤدي إلى غضب الأولياء و سخطهم على الزوار، وقد يؤدي ذلك في اعتقادهم حتى إلى اختفاء مياه الحمام ونفاذها، وفي هذا السياق تحدثنا إحدى السيدات (المخبرة رقم 4، تعمل منظفة بالحمام)، عن حمام أخر في المنطقة، يسمى ب" حمام المينة"، ولكن جراء ممارسات مخالفة للشرع" الماء غضب، هرب تحت الأرض" على حد تعبيرها، ويتقابل هذا مع الأسطورة المتداولة حول "حمام الشلالة"، في مدينة قالمة أو ما يعرف ب" حمام المسخوطين" أن هناك شخص تزوج من أخته مما أدى إلى غضب الله، فمسخوا وتحول العروسين والمدعوون إلى حجارة، وهناك من يفند هذه الأسطورة، ويرجع تسمية حمام المسخوطين إلى السكان القدامى له كانوا يتداوون بالمسك والطين، ولما أتى الاستعمار الفرنسي ومع صعوبة اللغة العربية عليه أصبحوا يطلقون عليه مسكوطين هكذا مع الزمان أصبح مسخوطين.

فزوار الحمامات الشعبية يمارسون طقوس عند دخول الحمام وأثناء الاستحمام، وعند الخروج منه. فهي طقوس تبركية ووقائية، تتوافق مع العقيدة الإسلامية تارة، وتتعارض معها تارة أخرى، لتمتزج بالأسطورة، والخرافة في الكثير من الأحيان، إذ أن للحمام "رمزية كبيرة وان لم يكن هذا معلنا، ولكنه فضاء للعبور من الدنس إلى الطهارة، ومن المرض إلى الشفاء، وهو نفس المكان الذي يمر به الإنسان بكل مراحل حياته، منذ أن كان طفلا إلى أن يصبح شيخا، وفي كل مرة يعيد استكشاف المكان ذاته في الاستغراق الكامل والانصهار مع أبخرة جدرانه التي تعبق بنوع من الأسطرة والخرافة، تحيله على واقع أخر طاقته وصفاءه الروحي والذهني"(خولة الفرشيشي، 2017، ص88)

**ب.طقوس ومعتقدات وقائية حول الماء:**

كثيرة هي الطقوس والممارسات بالماء وحوله، في منطقة الدراسة، إذ نجده يحضر في تفاصيل حياتهم اليومية، و في المتخيل الشعبي في مناسبة الطعام كأكثر الأنشطة اليومية التصاقا بالإنسان بوضوح في استحضاره كضرورة لازمة له فنجد مثلا القول المأثور "الطَّعَامُ بْلاَ مَا، مِنْ قِلّمةْ الفْهَامَة"- وهي دعوة صريحة لضرورة تواجده صحبة الطعام، بل إنه ارتبط باللباقة وأدب الضيافة.

كما نجده يرتبط بأمور أخرى ويستعمل لأغراض أخرى ربما تدخل ضمن الاعتقاد الخرافي والسحري في أغلب الأحيان، فعند تقليم الأظافر مثلا أو قص الشعر أو الشعر المتبقي في المشط بعد تمشيطه، يجب أن يرمى في الماء الجاري، مخافة من وقوعه في من يلحق بهم أذى كالسحر مثلا، إذ تحدثنا إحدى المخبرات بقولها" ...لازم كي نحو ظفارنا، ولا تقص الطفلة شعرها، نرموه ف الما باش يعاود يطوال، وزيد الظفار ولا الشعر حرام علينا نرموهم في بلاصة ماشي نظيفة، لخاطر كاين لي يدير بيهم سحور وقداه من وحدة يسحروها بشعرها. "ربي يسترنا"، الما راهو نعمة ربي وفيه لحياة"، ما نستشفه من هذا الحديث، هو اجتماع الديني و الخرافي في عنصر ثقافي واحد في صورة طقوسية متميزة، "وهكذا يعيش الإنسان في نوعين من الزمن، حيث أن أكثرهما أهمية هو الزمن المقدس، يمثل تحت المظهر المتناقض لزمن دنيوي، قابل للانعكاس وقابل للإعادة، ولنوع من حاضر أزلي أسطوري، يحتفل به دوريا بواسطة الطقوس"( ميرسيا الياد، 1988، ص،58)، يستحضر الماء أيضًا للإحياء والتجديد، فحادثة الطوفان ترمز إلى تجديد الأرض وإعادة إحيائها بعد أن أثقلتها وطأة ذنوب البشر وخطاياهم .كما نجد الماء يستعمل في تجديد روابط الزوجية حيث " يعيد الزوج إراقة الماء في يدي الزوجة، هذا الماء يكون أحد البراهمة قد صبه في يديه"(فيليب سيرينج، 1992، ص353).

كما ينهى في الوسط الشعبي لمجتمع الدراسة عن سكب الماء الساخن ليلا، اعتقادا في أن الشياطين ستؤذيهم، وحين تساءلنا على السبب، قيل أنه إذا سكبنا الماء الساخن، فإنه يحرق أولاد الشيطان، فيؤذيهم كما آذوا أولادهم، حيث إذا رمي الماء استحضرت بعض العبارات الوقائية من كيد الشيطان ،كأن يقال " بسم الله، ربي ينجينا من ضركم وربي يعطينا رضايتكم"، كما ينهى أيضا عن الاستحمام مساء أو ليلا، اعتقادا منهم أن في هذه الفترة ينشط الجن، وتلخص لنا إحدى

النسوة هذا بقولها: " عوامة، نوامة من العصر وروح ما تضمنش السلامة"، أي أن الاستحمام والنوم في هذه الأوقات قد تضر بصاحبها.

ومن المعتقدات حول الماء كذلك في منطقة الدراسة بعد الانتهاء من عملية التحنية للعروس في عرسها أن الحناء التي تحني به العروس لا يجوز لأحد أن يقترب منها، وتقوم أم العروس أو أختها أو جدتها، بغسل الصحن مباشرة بالماء أو دفن الحناء المتبقية في التراب في مكان حيث لا يراها فيه أحد، أو يغسل الصحن بالماء، ثم تسقى به شجرة، كي يثمر الزواج كما تثمر الشجرة، " فالماء يرمز إلى مجموع القوى الكامنة والى جملة الإمكانات الكونية. انه الينبوع والأصل، وانه الحوض الذي يظم جميع إمكانيات الوجود، وهو يسبق وجود كل شكل ويدعم كل خلق"( ميرسيا الياد، 1998، ص197) وفي بعض الأحيان يغسل الصحن بالخل اعتقاداً منهم أن الخل يقضي على السحر كما يقال "أنه يفسخ السحور"، ونجد هذا الطقس موجود في جميع المناطق، ولكن بصيغ مختلفة، فمنهم من يضع بقايا الحنة في منديل، وتعطى للعروس في يدها كي تطمئن.

فالاهتمام بغسل الصحن مباشرة بالماء، و إخفائه بعد التخضيب طقس وقائي يحمي العروس من التعرض للسحر. وفي بعض الأحيان يقومون بكسر صحن الحناء وذلك لاعتقادهم أن السحر والشر ينكسر بانكسار الصحن.

**3.الماء في المثل الشعبي ووظيفة تصريف الرموز:**

تكاد تُرجع أغلب أساطير المجتمعات البشرية القديمة، أصل الكون والحياة وجميع أصناف المخلوقات إلى الماء، والتي تعبر عنها داخل قوالب معرفية أسطورية شائعة الصدى منذ القدم، كأشكال من المعتقد والموروث الشعبي المتصل بالماء، وتترجمه كمضامين دالة على موضوع المقدس والخصوبة والحياة والموت، وخصوصا أنه كان موضوعا للعبادة ،عبر طقوس تبجيل آلهة الماء، التي تتعد ما بين آلهة البحار وآلهة الأنهار والآبار والمغارات المائية إلى غير ذلك من المجالات المائية المقدسة، التي مازالت تحظى بنفس التمثل المقدس لهذا المورد، ولمنابعه ورموزه الأسطورية القديمة(حنان حمودا، 2016، ص141).

وما يهمنا هو الأمثال الشعبية حول الماء، فهناك الكثير منها ما عُبر عن طريق عنصر الماء للدلالة على قضايا وممارسات يومية كالمثال الذي يضرب على أهمية وأولوية شيء أو أمر على أمر ثانوي" **الما لي رايح للسدرة، الزيتونة أولى بيه".** وأيضا **"فوت على واد هدا وما تفوتش على واد ساكت"**، ما يهمنا هو الأمثال الشعبية التي ضربت للدلالة على الماء وما تحمله من قيمة رمزية في منطقة الدراسة، إذ نجد من بين الأمثلة التي تدعوا إلى الحفاظ على الماء وعدم تضييعه والحث على استخدامه استخداما عقلانيا كالمثل القائل **"استحفظ على الما حتان تلقى الما"،أو"ماتضيع ما حتان تلقى الما"**.كما أن هناك أمثلة دالة على أهمية الماء أثناء الأكل، ووجوده كفاية **"الماكلة بلا ما من قلة لحيا"** وايضا القول **"كسرة وما خير من عيشة الشقا".** والأمثلة كثيرة حول هذا العنصر الهام:

**"أذكر الما يبان العطشان"، "قبل ما تخطب وجد الما ولحطب"، "البير لي كثرو عليه اليدين ديروه لغسيل الرجلين"،"دير الخير وارميه في واد جاري اذا ضاع عند العبد ما يضيع عند الباري"، "اللي يحب يشرب يروح لراس العين"،"الحوت فلبحر عوام والنسا بلا ما يعوموا"،**

**"الخيل يعرف مولاه والما يعرف مجراه"، "الواد مديه وهو يقول ما حلى برودو"، " الثلج صب وغطى لجبال، ولمطر فرحولوا النسا والرجال"، " لي في فمو خبزة يبلعها بالما، ولي في فموا تمرة يغرسها ويستنى السما"، الزايلة ساقوها للبير تشرب، شربو هوما وخلوها تحطب"، " يا نفس علمتك شرب الصافي، نوصيك اذا وصلت للغدر عافي"، " كنت حاسبك حجر المرجان يديروا بيك لبرايم، ظهرتي كي حجر الويدان تمشي فوقك لبهايم".**

كما أنه بواسطة المثل وتراكمه عرفنا استفادة العامة من تجاربها مع الطبيعة وتقلباتها وشتى مظاهرها، استفادة لا تزال مظاهرها باقية إلى اليوم، سواء عند أهل البوادي والأرياف أو المدن وخاصة ممن يمتهنون الفلاحة ،فلا يزال الكثير من الكبار يعتمدون في حياتهم اليومية وفي تعاملهم الفلاحي والتجاري على خبرتهم التقليدية وعلى معلوماتهم عن المناخ الذي خلدته الأمثال الشعبية ورصدت تغيراته وحركاته وأثره في الإنتاج الفلاحي، فعرفوا مواسم سقوط الأمطار والثلوج والرياح...

ومن بين الأمثلة التي تضرب في هذا الشأن ما هو متداول على ألسنة الفلاحين خاصة **"أيام الشتا جات ولي ماغزلتش تعرات"** أي أن فصل الشتاء أشد الفصول و أقساها بأمطاره و برده، فتتخذ له كل الاحتياطات اللازمة لمقاومة أثاره بتوفير الغذاء واللباس والحطب لمدة طويلة.

كما يقال **"مطرة في مارس خير من الذهب فلكرارس، ومطرة في برير(أفريل)خير من الذهب فلحرير"**، و يقال أيضا **"اذا صبت في مارس وجد الخيل علاش تدرس"** وهذا تعبير ودلالة على أهمية المطر للأرض في هذين الشهرين من السنة. كما يقال **"في فرار ما يصلح الما للاشجار"** أي في شهر فيفري ينصح بعدم سقي الأشجار.

ويتضح من خلال هذا معطيات تاريخية لمسار الجماعات، ويعرف ذلك فيما عرف وترسخ من عقائد ظلت تتوالى عبر ممارسات عدة من علاقة المطر بالأرض وفلاحتها وإنبات زرعها، وارتباط ذلك من جهة أخرى بما يسود العلاقات البشرية والحيوانية وما ينشأ عن ذلك من إخصاب وإنجاب(محمد عيلان، 1996، ص54).

من خلال هذه الأمثال التي أوردناها يتضح جليا أنه هو الرحم التي يتخلق فيها المخيال الشعبي والأدبي وتتكون البنى الأسطورية، حوله التفت العادات والتقاليد والأمثال الشعبية والمفاهيم التي لها دلالتها وأبعادها المتشعبة فكريا ووجدانيا وسلوكيا وفي ضوء التحليل الأنثروبولوجي ومعطياته تأكد لنا من خلال الأمثال الشعبية حول الماء على أنه مادة الحياة ومورد الخصوبة وأصل الكون وهو من بين الرموز الثقافية التي يستعملها الإنسان للتواصل، "رمزية الماء هي الأوسع والأشد تعقيدا من دون سائر الرمزيات التي تأتلف معها"(ميرسيا الياد، 1998، ص197)، فهو عنصر طبيعي يحظى بوضع رمزي وحيوي جعله في أصل الطبيعة والرمزية، وقد شكل محورا أساسيا في الفضاء العقائدي لسكان منطقة الدراسة، واتخذ في الذهنية المحلية مكانا متميزا ركزت حوله العديد من الطقوس والمعتقدات التي تعددت دلالاته بتعدد مصادره وأنواعه وخواصه وصفاته وأبعاده الرمزية التي سعت إلى جعل هذا العنصر الحيوي أكثر ثراء والتي تبين مدى قدسية الماء والدور الذي يلعبه في الحياة اليومية.

**أهم النتائج المتوصل إليها:** من خلال ما سبق في تعرضنا لمعطياتنا الميدانية بالمناقشة والتحليل نستنتج ما يلي:

-يكتسي الماء قيمة رمزية هامة، ومكانة مقدسة في المخيال الشعبي في مجتمع الدراسة، تترجمها مجموع الطقوس والممارسات والمعتقدات، وكذا أشكال الأدبي الشعبي.

-نجد أن طقوس الاستمطار تتعدد وتختلف أساليب ممارستها وإحيائها، ألا أن الجامع بينها هو الهدف من وراء أدائها وهو نزول المطر لإحياء الأرض بعد جفافها، ففي ظاهر هذه الطقوس أنها تسعى للظفر بعنصر مقدس لا تستمر الحياة من دونه، غير أن المتأمل فيها يجد أنها أبعد من ذلك بكثير، فهي تجمع بين ما هو عرفي قبلي وما هو ديني تعبدي، لتشكل بذلك إحدى أهم مظاهر التنوع الثقافي الذي تتميز به منطقة الدراسة، فتجتمع رمزية الماء مع رمزية الأرض والمرأة في طقوس الاستمطار، فالسماء عندما تمطر تخصب الأرض وتحييها عبر التجدد وولادة الزرع والنبات فهي مماثلة لعملية الإنجاب عند المرأة.

-الماء من أقدس المقدسات في منطقة الدراسة، حيث أنه تجاوز ماديته وأصبح يرمز للبركة وجلب الرزق ودرأ العين والحسد والسحر، ويعتقد في أنه من القوى الخارقة التي تضر تارة وتنفع تارة أخرى، فهو متأرجح بين ثنائية مقدس/مدنس في الكثير من المعتقدات الشعبية، التي تنتقل من جيل إلى جيل، إذ تحمل في مكنونها صور ورموز عن جوانب مختلف الحياة، حيث تتحكم في المخيال الشعبي للفرد في علاقته مع محيطه، وتجده يؤمن بها إيمانا قطعيا، حتى وإن لم يكن يعرف الأهداف من ورائها، فهي بمثابة سلطة غيبية وراثية توجه تفكيره وتصوراته.

-تعتبر الأمثال الشعبية الرحم الذي يخلق فيه المخيال الشعبي والأدبي، فالماء من خلال الأمثال الشعبية هو مادة الحياة ومورد الخصوبة وأصل الكون، فهو عنصر طبيعي يحظى بوضع رمزي وحيوي جعله في أصل الطبيعة والرمزية، وقد شكل محورا أساسيا في الفضاء العقائدي لسكان منطقة الدراسة، واتخذ في الذهنية المحلية مكانا متميزا ، تركزت حوله العديد من الطقوس والمعتقدات التي تعددت دلالاتها بتعدد أبعدها الرمزية، التي سعت إلى جعل هذا العنصر الحيوي أكثر ثراء، إذ يتبين من خلالها مدى قدسية الماء والدور الذي يلعبه في الحياة اليومية.

**خاتمة:**

يكتسي الماء أهمية خاصة في مجتمعنا، كما هو الحال في جميع المجتمعات الإنسانية غير أن حضوره في الوعي والتفكير الشعبي، تطبعه بعض الخصوصيات المحلية التي وجدت لها أساسا من الثقافة الشعبية، ومن المتخيل الشعبي والاستغلال الديني، والتفسير الغيبي والاعتقاد الخرافي، وهو ما شكل لنا معالم ذهنية محلية زاوجت بين الحقيقة والواقع، بين المتخيل والمنشود، وبين المقدس الطاهر والمادي الزائل.

إنه الماء عصب الحياة فعل فعله في أجدادنا فخلفوا لنا وفينا حبا له، كنعمة وكقوة خارقة وكرمز للحياة تجب المحافظة عليه، وكدلالة على الغوث والنجاة، كيف لا وما تفكير مجتمعنا غير خليط من الاعتقاد في الله وقدرته على الخلق والإبداع، وهو القاهر أيضا المعاقب للعباد كلما أزاغوا أو انحرفوا عن الطريق، وهنا يشكل الماء أساسا للتأديب، وتذكير الإنسان بضعفه، ما فسره الإنسان قبل حلول الإسلام بضرورة طلب ألهه المطر، وجسدوها في طقوس عدة ومثال ذلك طقس

"تلاغنجا" أو "القايمة، وحاولوا تجسيدها بعد حلول الإسلام بين ظهرانيهم في صلاة الاستسقاء، وطلب الفرج من الله الواحد الأحد، كما عبروا عنها في ألوان شعبية أخرى.

من جهة أخرى وكنتيجة لانتشار التصوف بالبلاد، فقد عمد صانعوا بطولات وخوارق الصلحاء من رجال التصوف والمجتمع، إلى إصباغ من يعتقدون فيهم الولاية ببركات استنزال المطر والعلم به، وتوسطهم في عملية الإنزال، أو اطلاعهم على أوقات نزوله وشكله، مما لا يجد له أصلا في الدين ويعد انحراف عن توجهاته التوحيدية.

**قائمة المراجع:**

1.أحمد رشيدي صالح(2002)، الأدب الشعبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، القاهرة.

2.بوجمعة كثيري(2018)، تعدد الروافد الثقافية في الثقافة الشعبية المغربية: تيمة الماء أنموذجاً، مجلة عود الند،http://ww.oudnad.net27/06/2018 17:08.

3.حنان حمودا(2016)، الماء كمنشط أنثروبولوجي لإنتاج الطقوس بواحة سكورة جنوب المغرب، مجلة إضافات، ع33-34، المغرب.

4.خولة الفرشيشي(2017)، الجسد في الحمام، ط1، نقوش عربية، تونس.

5.سنوسي صليحة(2003-2002)، الأغنية الشعبية السياسية في الغرب الجزائري، رسالة ماجستير، تلمسان

6.عبد الرحيم العطري(2014)، بركة الأولياء، بحث في المقدس الضرائحي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء.

7.فيليب سيرينج(1992)، الرموز في الفن، الأديان، الحياة، ترجمة عبد الهادي عباس، ط1، دمشق، سوريا

8.محمد بن عبد العزيز بنعبد الله(1996)، الماء في الفكر الإسلامي و الأدب العربي، ط1، ج1، المملكة المغربية.

9.محمد الجويلي(2016)، طقوس الاستمطار عادات تستدعى في مواسم الجفاف، جريدة العرب، ع10399، تونس.

10.محمد عيلان(1996)، الأنواء والفلاحة في الأمثال الشعبية الجزائرية، مجلة المأثورات الشعبية، ع43، مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج، قطر.

11.ميرسيا الياد(1998)، صور ورموز، ترجمة، حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، سوريا.

12.ميرسيا الياد(1988)، المقدس والمدنس، ترجمة، عبد الهادي عباس، ط1، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

13.هيثم سرحان(2008)، الأنظمة السيميائية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان.